هندسة المكان في شعر بلند الحيدري – نماذج مختارة–

GEOMETRY OF PLQCE IN THE POETRY OF BLIND AL-HAIDARI-SLEECTED MODELS–

أحمد سماش[1]، شهيرة برباري[2]

ChahiraBarbari[2] ،ahmed.semmache[1]

مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها (بسكرة)

1 جامعة محمّد خيضر– بسكرة (الجزائر)، ahmed.semmache@univ-biskra.dz

2 جامعة محمّد خيضر– بسكرة (الجزائر)، chahira.barbari@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2025/01/27تاريخ القبول: 2025/10/02 تاريخ النشر: 2025/12/15

ملخص: شغل المكان عند الشعراء العرب المعاصرين حيزا واسعا ومهما؛ إذ جعلوه عنصرا أساسيا في بناء الفعل الدرامي في القصيدة السردية، التي جاءت تؤرخ لميلاد تجربة شعرية جديدة مبنية على تراسل أجناس أدبية عدة، فوظفوا المكان حسب رؤاهم وانفعالاتهم، محاولين تجاوز الضيق النفسي والاجتماعي، وتحاول هذه الدراسة استجلاء صور المكان، وكشف جمالياته في النص الشعري المعاصر، للشاعر العراقي 'بلند الحيدري' كمدونة تطبيقية؛وقسمنا دراستنا إلى مقدمة وفيها وظيفة المكان في العمل الشعري عند الحيدري، ثم تطرقنا إلى مفهوم المكان وأهميته وأبعاده وأنواعه،وطبقنا على نماذج مختارة من شعره، وفي الخاتمة عرضنا أهم النتائج.

كلمات مفتاحية:المكان، الشعر، هندسة، الخيال، التجربة، بلند الحيدري، المنفى.

Abstract: Place occupied a large and important space among contemporary Arab poets; as they made it a basic element in constructing the dramatic action in the narrative poem, which came to record the birth of a new poetic experience based on the correspondence of several literary genres, so they employed place according to their visions and emotions, trying to overcome psychological and social distress, and this study attempts to clarify the images of place, and reveal its aesthetics in the contemporary poetic text, by the Iraqi poet 'Buland Al-Haidari'as an applied code; and we divided our study into an introduction in which the function of place in Al-Haidari's poetic work, then we addressed the concept of place, its importance, dimensions and types, and applied it to selected models of his poetry, and in the conclusion we presented the most important results

Keywords: place, poetry, architecture, imagination, experience, Blind Al-Haidari, exil.

المؤلف المرسل: أحمد سماش، **الإيميل**: ahmed.semmache@univ-biskra.dz

1. مقدمة:

يعد المكان أحد العناصر المهمة في تشكيل النص الأدبي، وهو من الأسس الجمالية التي ينهض عليها،وقد حظي بحضور بارز في الشعر العربي قديمه وحديثه، ذلك لما يملكه المكان من تأثير مباشر في نفسية الشاعر العميقة، والذي جعله منارة يعبّر من خلالها عن قضاياه وهواجسه،وكل ما يختلج في نفسه من إحساسات ومواقف نفسية أو اجتماعية أو سياسية أو فكرية،فالمكان هو البؤرة الخارجية التي لهاعلاقة مباشرة بالإنسان بصفة عامة، وبالشاعر خصوصا باعتباره النقطة الجوهرية التي منها ينطلق وإليها يعود، ولا يمكن النظر إليه بوصفه بعدا هندسيا فقط يحيط بالشاعر قبل أن يتعالق مع خياله الفذ،ولعلّ هذه المهارة التعالقية التي يحسن سبكها الشعراء فيما بينهم فيظهروا براعتهم وحذقهم محاولين إبراز جوانبه الجمالية والفنية،وبالتالي يمكن الجزم بان المكان هو عنصر من أهم العناصر التي تتدخل في تشكيل جمالية النص الأدبي،وعند الشاعر حديثا أخذ المكان صورا عديدة، وظفها متنوعة ليعبر عن جميع مواقفه الفكرية والسياسية والاجتماعية والفنية مستحضرا تجربته الفردية أو الجماعية، وتهدف دراستنا هذه إلى استجلاء صورة المكانعند أحد أعمدة الشعر العراقي،وكشف جمالية توظيفه ودلالاته المختلفة في أعماله باعتباره ممثلا للتجربة الصادقة في اختيار الحيز المكاني ونلمسها أيضا من خلال تتبع سيرته في الحياة وانتقاله بين البلدان باحثا عن متنفس يجد فيه نفسه الضائعة بين عصبية النظام وألم النفس وتوجعها، فتجربة الشاعر الذي صهرته الأيام في أحياء وطنه، باحثا عن وطن الآمال والأمان تجسدت بين فلتات لسانه وشفرة قلمه، وهو يتمثل حياة جديدة تحت جسور بلده الأم "العراق"، خارجا عن مألوف أسرته، منتقما وناقما على كل موروث في أسرته الخصبة مقدما النماذج الحية والواقعية من الشعر الجديد الذي يلتزم الواقع، ويسرد قصصه اليومية وتجربته الفذة التي شاركه فيها شعراء آخرون مثله أرادوا إثبات وجودهم وتبليغ أصواتهم المكبوتة، والتي تراوحت بين الأنين الاجتماعي على مجتمع متألم تحت سطوة نظام ظالم، والسخط السياسي الذي يمارسه أهله على الرعية، منطلقا من ذاته للتعبير عن كل شرائح البائسين مثله وخاصة المثقفين والشعراء الذين شُنقت كلمتهم على مشانق الأنظمة الظالمة الجائرة، ولكنهم اصطدموا بفولاذية وقساوة حكومات تعاقب على الكلمة، لسان حالها (أنا وبعدي

الطوفان)، فراحوا يستحضرون الأماكن وقساوتها والبيئة ووحشية من يسوسها، رامزين لكل مكان بدلالات مأساوية فيها بصيص أمل زائف متخذين من منافيهم وغربتهم التي أكلت نصف أعمارهم البيولوجية أوجلّها، وكثير من عمرهم الإبداعي، مصدر إلهام عام لتبليغ أصواتهم التي كانت هامسة على تربة وطنهم بسبب النظام الحاكم آنذاك طغيانا وديكتاتورية، وقد وقع اختيارنا على هذا الموضوع لقلة الكتابة فيه،رغم الكم الهائل من أعماله التي كانت بادرة لظهور نمط جديد من الكتابة الشعرية،وتلمسنا الحقيقي لتلك الطاقات الفكرية والمعرفية إضافة إلى الخبرات الفنية والجمالية التي أفرغها في أعماله المختلفة وهو ينبئ بولادة فن شعري جديد على مشارف الحداثة،والخروج عن المألوف التقليدي رافعين شعار الحرية درعا يحتمون به في واقعهم الأليم،الذي أنكرهم جملة وتفصيلا.ولعلّ الشاعر العراقي 'بلند الحيدري' من أوائل وأبرز الشعراء الذين طرقوا هذا الباب وأمعنوا فيه،وجعل هو الآخر من المكان عنصرا أساسيا في ظاهرة السّرد الشعري عنده،ولأنه لا يمكن تصور عمل سردي دون مكان،فالمكان أصبح معبرا عن نفسه وذلك من خلال توظيفه عبر أشكال معينة ومتنوعة،والمكان الحقيقي هو الذي يستطيع فيه الإنسان بناء ذاته و إذا فقد ذلك كان مهترئا هشا بلا قيمة ولا وزن . وفي هذه الورقة البحثية ركزنا على ماهية المكان وأنواعه؟ وماذا تعني هندسة المكان عند الغرب والعرب؟ وما الفرق بين المكان والفضاء؟ وما أهمية المكان في العمل الشعري المتداخل الأجناس وأبعاده المختلفة؟ ومدى تجليات المكان في نماذج مختارة من شعره ثم وظيفة المكان الداخلية والخارجية وأخيرا الخاتمة التي عرضنا فيها أهم النتائج المتوصل إليها، متتبعين المنهج الوصفي التحليلي المناسب للموضوع و الذي يسمح بالغوص عميقا إلى مكونات المصطلحات التي تحوي الكثير من الأوصاف المكناة غير المصرح بها، وفي المقابل لم نغفل المنهج النبوي الذي يساعد على تحليل المكان في القصيدة الشعرية.

2. **تعريف المكان**:هو أهم عنصر في عملية السرد إذ لا يقوم سرد إلا على هذا المكون الأساسي لأنه الأحداث السردية تجري عليه وهو الحيز الذي يحوي الأحداث بأزمنتها، ووردت له عدة معان في المعاجم العربية اللغوية. ففي لسان العرب يظهر معناه:

2.1.لغة: مكان مأخوذ من مادة (كون) والمكان عند أهل اللغة بمعنى الموضوع لأنه موضع لكينونة الشيء فيه(منظور، 2003)

كما وردت لفظة مكان في عدة مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى:﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً**﴾(سورة مريم، 16)

2.2.اصطلاحا: يرى هندي متران "المكان هو الذي يؤسس الحكي لأنه يجعل قصة المتخيلة ذات المظهر مماثل لمظهر الحقيقة(الحميداني، 2000)

ومن بين أهم التعريفات ماقدمه الناقد الجزائري عبد المالك مرتاض: "هو كلمابنى حيزا حقيقيا من حيث نطلق الحيز في الحد ذاته على كل فضاء جغرافي أو أسطوري أو كل ما فيه عن المكان المحسوس كالخطوط والأبعاد والأحجام "(محفوظ، 1999)، فالمكان إذن أعمّ من الفضاء الجغرافي، أمّا ماقاله العالم والفيلسوف"يوري لوتمان" حيث عرف هذا المصطلح على أنه مجموعة من الأشياء المتجانسة من ظواهر الحالات والوظائف والأشكال المتغيرة، وتقوم بينها علاقة شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة والعادية مثل الاتصال، والانفصال (النعيمي، 2001)وأمّا عبد المالك مرتاض فنجده يجمع بين مفهومين الحيز والمكان أي أنهما يقابلان المصطلح الفرنسي والإنجليزي (spcer-espac) ولعل أهم مايمكن إعادة ذكره هنا أن مصطلح الفضاء من الضرورة أن يكون معناه جاري باق في الخواء والفراغ، بينماالحيز لدينا ينصرف استعماله في النتوء، الوزن.الثقل.الحجم والشكل "(مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، 1998)، وهذا يعني أن المصطلحين مترادفان.

3. التمييز بين المكان والفضاء: يرى حميد الحمداني في كتابه "بنية النص السردي"عندما تحدث عن تعددية الأمكنة في الرواية بأن تلك الأمكنة هي المشكلة لفضاء الرواية لأن "الفضاء أشمل وأوسع من معنى المكان والمكان بهذا المعنى هو مكون الفضاء"(الحمداني، صفحة ص63)، أما إذا جئنا إلى سعيد يقطين فنجده في كتابه"البنيات الحكائية في السيرة الشعبية يتبنى الموقف نفسه والذي يرى أن الأمكنة تتضافر من أجل بناء

فضاء روائي معتبرا الفضاء هو الكل الذي يتجزأ منه المكان،حيث يقول: "الفضاء أعممن المكان لأنه يشير إلى ما هو أبعد وأعمق من التحديد الجغرافي(يقطان، ص240)

يمكن الفصل من هذا أنّ الفضاء يشكله المكان المتعدد،مما يعكس عمومية الفضاء وشموليته على المكان.

4. هندسة المكان:

وتختص الهندسة بعلوم المادة وتقنياتها ، وورد مفهومها في المعاجم اللغوية منها: في المعجم الوسيط "هندس الرجل القنيّ والأبنية والآلات ونحوها، والهندسة العلم الرياضي الذي يبحث في الخطوط والأبعاد والسطوح والزوايا والكميّات أو المقادير المادية من خواصها وقياسها أو تقويمها وعلاقة بعضها ببعض، والمهندس من يلم بعلم، ويمارس فنّا من الفنون الهندسية"(مؤلفين، /2004/1425)، ويتمكن الشاعر من تهيئة مشروعه الشعري عن طريق التفكير الايجابي في توظيف المكان، حسب ما يستدعيه الموقف بأدوات ووسائل شعرية متنوعة وخادمة للهدف.

5. أهمية المكان الشعري: لاشك أن للمكان أهمية قصوى في هندسة الرؤيا الشعرية عند الشعراء المعاصرين خاصة لأنه يبني القصيدة السردية المتداخلة الأجناس في العصر الحديث " إذ أصبح تحديد المكان فيها من السمات التي ميزت القرن التاسع عشر (قاسم، 1984)

وقد اكتسى المكان هدا الدور كما أشار النقاد لأنه يحمل خاصية تشكيل العالم الخيالي في القصيدة المعاصرة ويرسم أبعاده، ذلك أن المكان مرآة تعكس الحوادث داخل العمل الأدبي، وكما يجعل هو الآخر عن الأحداث والأعمال ممكنة الوقوع ومتوقعة الحدوث، وبطبيعة الحال لا يمكن أن يصوغ الشاعر توقعاته، أو يتحدث عن حالة إلا في إطار مكاني معين لذا فهو محتاج له حاجة ماسة وأكيدة إلى جانب ارتباطه بالإطار الزماني المحدد به وغالبا ما

نجد الشاعر يتعامل مع المكان تعاملا تخيليا أي يتوقعه كيف يكون إمّا في جانبه السلبي أو الإيجابي محاولا التغير ولو افتراضا لهذا نلمس بعض أفكاره وإديولوجيته.

6. أبعاد المكان: يعكس المكان أبعاد الشاعر الدينية والاجتماعية والتاريخية والواقعية والاجتماعية وحتى الخيالية الأسطورية وعليه سنذكر بعض الأبعاد منها: النفسي، الواقعي، التاريخي، والأسطوري والذاتي الشخصي،ونحاولا لوقوف على دلالاتها المختلفة.

1.6.البعد النفسي: هو مجموعة ما "تشكله من الانعكاسات الذات الفعالة المتحركة في نسيج النص وسياقه"(القاضي، 2009/ص141)وهذا يعني أن الشخصية لها محطات استراحة في أماكن تلوذ إليها للتخفيف من معاناتها وضيقها النفسي أين الصفاء والاختلاء بالذات، وهذا الارتباط ليس اعتباطيا بل هو راجع إلى مرحلة وجود الإنسان الغريزي حيث يتعلق بوطنه الذي يعتبر كالأم فيتحسر لفراقه ويتألم لتغر به عنه وان كان بداخله فإنه (ترتسم شخصية (مشاعر وأفكار) تحت تأثير المكان فهو ابن بيئته بأحداثها، تاريخها، همومها وآلامها، يتأثر بالحاضر والماضي حسب قربه أو بعده عنها، هو يندرج في أطوار حياته، تنطبع فيه تلك الآثار، وعندما يصبح مبدعا في أي مجال فإن إبداعه يكون وليد سياقات اجتماعية، وإنسانية ودينية بالرغم من صوره نتيجة الخبرة الذاتية والمعرفة الجمالية والتجارب التي مر بها (الألولي، بتاريخ: 2009/08/17)، والحيز الذي تلعب فيه الشخصية دورها حقيقة أو خيالا يؤطر هندسيا لكل تحركات الشخصيات الفاعلة فيه.

2.6.البعد الواقعي: وهو (ما ينقله المؤلف الضمني من عالم الواقع إلى الفضاء فيسهم في إبراز الشخصيات وتحديد كينونتها المصبوغة بصيغة المكان بعناية كبيرة فحين يصف المكان الواقعي، ينقله القارئ من الداخل وكأنه يطوف به في رحلة عبر المكان (الخرفي، 2006/2005)ويظهر عادة هذا البعد في السكنات والعمران التي تنتقل فيه الشخصية وتمارس فيه أدوارها المختلفة و أفعالها المتعددة (المدينة، السجن والمنفى .....)

3.6.البعد التاريخي الزمني: يسرد ويرتب الأحداث والواقع حسب تاريخها الزمني المحدد لأهمية البعد الحساس له وهذا البعد لا يمكن لأي روائي أو شاعر أو حتى ناقد أن يغفله أثناء ذكره للمكان ويكسبه بعدا تاريخيا مع العناصر السردية الأخرى.

4.6.البعد الفلسفي الذهني: وهو مرتبط بخبال المؤلف (الشاعر) ومدى قدرته على نقل الأحداث في قالب خيالي أو حقيقي، لينتج لنا ذلك لا التبادل بين الصور الذهني والمكانية"وبالتالي نكتسب الأحداث والصراعات في المكان الهندسي ملامح يمكن الكشف عنها بالتحليل والدراسة.

5.6.البعد الاجتماعي: ويتصل غالبا (بالعادات والتقاليد وأسلوب المأكل والمشرب)(قاسم س.، 2004) تحدث الشاعر عن شؤون مكمنها البيت أو يذكر بعض السلوكات التي يتصف بها قومه وهو يتحدث عن نفسه أو عنهم، كما يرتبط هذا البعد بالتاريخ أو الزمن لأنهما واجبا التوظيف مع بعض؛ لأن بعض التقاليد تزول بزوال الأمكنة.

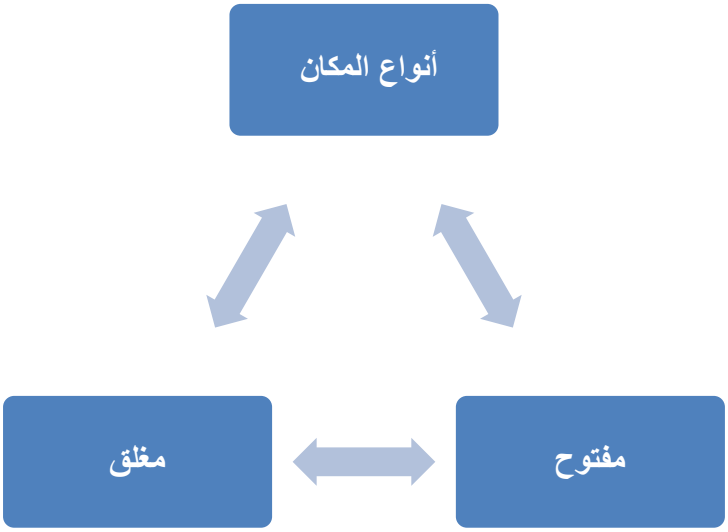
6.6.البعد الأسطوري: بخلق أماكن غريبة تدعو الى الدهشة والحيرة، فتنفتح القراءات وتتعدد الاحتمالات والغموض مما يبعث في العمل الروائي عنصر التشويق "ويهدف هذا النوع من الابعاد إلى خلق أماكن غريبة عادة ما تبعث على الحيرة والدهشة؛ لأن الأسطورة عادة ما تعكس البدايات لفكرية والمحاولات الأولى في معرفة الكون وما يتصل به فهي عصارة التجارب والمنطق في التعامل مع الواقع، كما أنها جزء لا يتجزأ من التراث (عليوي، 2001، ص36)

7.6.البعد الهندسي:ويتقدم فيه الشاعر بتقديم الشكل الهندسي الذي حوى معاناته وآماله وآلامه؛فيقدم وصفا للأجواء الخارجية التي تمثل الواقع والحالة النفسية التي تمتل الكآبة والضيق ومحاولة مغادرة الواقع إلى مثالية المستقبل مع نوعية البشر الذين يحويهم هذا المكان الهندسي الذي استطاع أن يجسمه ويمزج معه تفاعله الداخلي والخارجي كما يقول قدامة بن جعفر: "ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني إلى

الموصوف مركب منها ثم بإظهارها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ويمثله للحس بنعته"(جعفر، 1995/ص130)،والشاعر بلند الحيدري قدبرع في تصوير المعاني المزدوجة بين حالته الانفعالية وما شعر به تجله الحيز المكاني حيث تتحول الكتابة الشعرية إلى التعبير عن الذات والقدرة على جعل ماهو خارجي جزء مما هو داخلي.

8.6.البعد الذاتي للمكان: الشعراء مهندسون، ولكل واحد طريقته وأسلوبه في بناء الحروف وتعميرها فالحجر متوفر للجميع، ولكن القلة من المبدعين يدركون مواضع الحجر ومتى يوضع، وبالرغم من ذلك فإن حرية المهندس الذكي تبقى لا حدود لها، وهندسة المكان في القصيدة هي وضع الدلالة الصحيحة للحيز الذي يحوي الأحداث مرجعه يرتبط بحرية الشاعر ومهارته ومعرفته بكمياء اللفظ أشد ارتباط؛ فالشاعر المعاصر يخوض بكل طاقته الإبداعية تجربة عظمى لإثبات وجوده في واقع يراه متشظيا بكل قيمه،أمام صراع داخلي وخارجي دائم.

7. أنواع المكان وتجلياتها في شعر بلند الحيدري:



المكان الذي لاحدود له وكثيرا مايكون ممثلا في:السماء، الصحراء، وغالبا ما تكون منفتحة على الطبيعةفهي مكان فسيح للتنفيس وتحقيق الاتساع والانفتاح على المستوى الجغرافي والنفسي.	المكان الذي له حدود ويكون ممثلا في: غرفة، بيت، قبر، سجن، وغيرها. وهيأماكن للتعبير عموما عن الانغلاق والضيق بصورة عامة يقول رحيم علي جمعة: "هي التي تحدها حدود من جوانبها الثلاثة على أقل تقدير بشرط أن تكون حدودسقفية"(جمعة، 2003م، ص147)

والمكان المفتوح عند الشعراء المعاصرين هو عالم فسيح لتفريغ الهموم وتخفيفها كما أنّه يمثل رموزا وعلامات متنوعة، حسب الحالة الشعورية للشاعر وفي الوقت نفسه تعبر أيضا عن الحرية المأمولة التي يفتش عنها طول حياته والتي يراها صعبة في واقعه المليء بالمتناقضات والموروثات القديمة التي لم يألفها بينما هو يريد حياة حداثية فارغة من ذلك.ويعد بلند الحيدري من أولئك الأوائل الذين شخصوا المكان وتحكّموا فيه أيّما تحكم وهم يديرون أحداث حياتهم وواقعهم الشخصي في جل قصائده حين أكثر من استعمال كلمة بغداد

باعتبارها لأحداثه المتنوعة فهو يصفها مرة بالهدوء ومرة بالاضطراب ومرة يجعلها مبهمة فبغداد تحمل معاشه الشاعر من معاناة وتشريد وإحساس بالتفاهة، ومنه يمكن أن نخلص إلى أنّ المكان ثابت أما دلالته عند الحيدري تتغير حسب حاجته التعبيرية لهذا المكان فيقول مثلا في قصيدته"من يدري يا بغداد"(الحيدري، الأعمال الكاملة، 1993/1973ص535)

بغداد

ياأنت الغصة في عين مصلوب

يسأل في الموت

الممتد على مد الحبل الخانع كالذل

يسأل عن رعد الميلاد

بغداد

يابيتا مهجورْ

يازمنامأجور

ياوجعا مأسورْ

ياوحشة امرأة ثكلى تنحب.(الحيدري، الأعمال الكاملة، ط1/ 1946، ط2/ 1993، صفحة 535)

مثلت (**بغداد**) المكان الرئيس لكلّ مشاعر الحيدري فهي كلّ شيء بالنسبة إليه؛ فهي ملجؤه الوحيد، وهي الشاهد على مآسيه التي عاشها فيها إبان الدكتاتورية الحكومية.كانت **بغداد** هي الغصّة التي لم يرُقْ للشاعر استساغها على حافة الموت، فهي حجر عثرة ووجع ينقلب الشاعر بين لحظاته.ثم تصبح بغداد عنده بيتا مهجورا بلا أهل مثقفين يدافعون عن حقها ويمارسون واجبهم عليها، أصبحت ذلك الزمن الذي يتقاضى أهله الأجور من أجل أن يصمّوا آذانهم ويقطعوا الكلمات من ألسنهم التي تعبر عن عمق الجرح البغدادي.إن تحت أنقاضها ثورة تجديد نائمة.ثم تتحول بغداد امرأة ثكلى فقدت أبناءها وهي تنتحب في صمت طويل يقول أيضا:في قصيدة"من يدري يابغداد"(الحيدري، الأعمال الكاملة، ط1/ 1946، ط2/ 1993، صفحة 536)

بغداد

قد كذبت نشرات الأخبار

عن نصر ما كان سوى وجهينا في الخيبة والعار

وأضلك عن نفسك شاهد زور

في خطبة ربان أعمى وهتاف رجال عور

يميل الشاعر إلى التصريح بحاضر بغداد التعيس الذي جسده ومثل أدواره حكامها، ووافقهم رجال الدين المستعارين على طغيانهم وفسادهم وعملائهم ومن يتمسحون ببلاطهم طالبين عفوهم ومثبتين تزلفهم؛ لتنغلق بغداد على اتساعها بالنسبة للشاعر.ثمّ تتوالى الأماكن التي قد ينعت بها بغداد أو أماكن أخرى، تغير إليها الفعل السردي في ثنايا القصيدة السابقة "من يدري يابغداد"

ولن أنسى متسعا في صدرك

في أجمل ما أعرف من دفئ وحنان

قد نعتب

قد نندب

قد نغضب

قد يغترب الواحد منا في الثاني

قد نشعر أنّا منبوذان

في أكثر من زمن ومكان

في غير سؤال...في غير عتاب..في غير دم قان

يتسللن بين شقوق دروب جفت(الحيدري، الأعمال الكاملة، ط1، 1946/ط2، 1993، صفحة 533، 532)

ولكن لا يزال تحسره ملازما لبغداد في صورة ألم حسي يتجرعه من أجل وطنه الدامي الذي يندبه ويعاتبه، ويغضب لأجله، وقد يشعر بالغربة الخانقة وهو فيه،بسبب الاحتقار والذل، وشعوره بالتفاهة واللامكان.وقد اكتملتصوير هذا المكان من خلال تشكيل صورته الشعرية

الكاملة عبر تراسل الحواس؛ وهو التعبير عن مدركات حاسة بحاسة أخرى إذ نقمته تظهر للعلن فنجده يقول في موضع آخر من القصيدة نفسها:"من يدري يابغداد"

والتفت جسمي في نقمة كلب مسعور

يبحث مابين خرائب أطلالك عنّي

عمّا أبقت ديدان قبورك منّي

لكنّا.. سنظل وكما كنّا

بغداد

إن متّ وإن عشت فمازلت

خارطة في جيبي الأيسر

تحمل عينيك العمياوين

طريقين لهذا الهارب منك

فهو حين يعبر عن يأسه وألمه من وطنه بغداد؛المكان الذي يراه برؤى مختلفة إنّما يعكس اكتمال أدوات التعبير بنفوذها إلى نقل أحاسيسه الدقيقة، وبهذا النقل تتجرد **بغداد** عن بعض خواصها عنده لتصير فكرة أو إحساسا"ولأن العالم الحسي صورة ناقصة لعالم النفس الأغنى والأكمل "(هلال، 1992، صفحة 395)، ويتأثر مرة أخرى المكان بالصورة الشعرية في قصيدته"متهم ولو كنت بريئا" يقول فيها:

في غرفة في الطابق السابع

التقيا

تحدثا

تصارعا...تمانعا

ناما معا

وأسدل الستار(الحيدري،الأعمال الكاملة، ط1، 1946/ ط2، 1993، صفحة 141)

والغرفة المكان المغلق الذي تجري فيه الأحداث وكأن الشاعر يشد انتباهنا ويدعونا إلى مشاهدتها لا إلى قراءتها وسماعها من خلال تشكيلاته الفنية التي ينحتها ويخرج ألوانها بدقة تصويرية عميقة الدلالة، تظهر ملامحها في آخر مقطع من مقاطع تلك القصيدة.

وعندما استيقظ في مدينتي النهار
تسربت في نشرة الأخبار
حكاية عن غرفة في الطابق السابع
عن موعد للثأر
عن غضب الثوار
وكان في عنقيهما حبل وفي كفيهما
مسمار(الحيدري، الأعمال الكاملة، ط1، 1946/ ط2، 1993، صفحة 544)

يتحقق من خلال تشكيلاته الموصوفة طغيان الزيف وأزمة الأمة في سطو حكامّها وظلمهم المتواصل الذي استطاع أن يجسده في صورة واقعية مما يعبر عن حرفية الاستبداد وزيف الثورة الادعائية، فآخر القصيدة يأخذ تفصيلا عضويا لأولها المبهم أو الذي يأخذ القارئ أيّ مأخذ، بينما هو يجسد بكمياء لفظه صورة الثأر والانتقام لمن مثلوا القهر والقوة الباطشة الغاشمة في وطنه ومنعوا الكلمة وعاقبوا عليها، فإذا هم من مثّل السلطة التي تكبح الفكر والعقل معا سواء بالزيف أو التلفيق أو الاتهام الباطل.

ويصبح الوطن في عينيه مرة أخرى خرابا، لاوجود له فعبّر عنه في قصيدته "في طريق الهجرة من بغداد"

ماذا أبقوا من وطني
غير الأجداث الحبلى بالعفن
ثلاثة أبيات حذفها الرقيب
معذرة بغداد
إذا ما جئتك أجذم...أبكم
أفقر من عري الصحراء
قلما مكسورا وغلافيْ دفتر
ثلاثة أبيات أخرى يحذفها الرقيب(بلند، 1993/1946)

والرقيب هو ممثل السلطة القاهرة التي تعاقب على كل شيء حتى المسموحات عندها ممنوعات، فالمكان بمنظوره تعفن وأصبح خرابا، وتيها، وغريبا موحشا لا يدخله "بلند" إلا سقيما، وهذا ما يعكس رمزية المكان القهري ، والتسلط والبطش الملازمين لهذا التفكك في العلاقات بين الشاعر ووطنه، كما يبث تعزية مكناة له ولنفسه التواقة لزوال السيطرة والخوف الضاربين بأطنابهما على عليه.وكل الأماكن مفتوحة أو مغلقة إنّما هي وصف لمدينته بغداد المتمزقة رغم صمودها عبر التاريخ لكل الإحن، فهاهي اليوم أمامه "كفنا وأجداثا، طين كالح، رماد وجرح..."ترصد لنا قمة الضيق والمحاصرة من كل جانب، أهدابها لا تتحرك متسمرة، أعصابها مشلولة ، شبابها ذلّوا بالقرارات المجحفة والقوانين الجائرة "السكوت أو السقوط"، وبمثل هذا الواقع السياسي الذي ألجأ الحيدري إلى النفور والهروب من وطنه إلى وطن أو بالأحرى إلى أوطان أخرى من أجل تبليغ الصوت وإيصال الكلمة، وتضميد جرح الأمة.فالغرفة التي رصدها الحيدري هي الوطن الذي يخضع إلى تآمر خادع؟، وهما رمزان للواقع المسحوق المتمثل في الثورة الزائفة والسلطة القمعية المتجبرة.

إنّ استعمال الشاعر للمكان وحسن توظيفه،ليس استعمالا عاديا بل مدروسا دلاليا، ومحددا تحديدا رمزيا له إيحاءات ومعاني دقيقة يريد الشاعر تمريرها حسب موقفه وشعوره، فمدينته جزء من دائرة سياسية فاسدة، حيث تفقد "بغداد"خصوصيتها على أنّها العاصمة ومركز القلق باعتبارها المكان الضيق، لتشمل العراق كلّه، وهذا إنما تعبير عن أزمة وجودية ظلت مكانها وإنسانيتها الممتزجة بالانفعالات النفسية العميقة، والحضور الوجداني الكثيف، ثم ينحى الشاعر المنحى نفسه في شعوره تجاه المكان في قصيدته"مسيرة الخطايا السبع"بفلسفته التمردية فتصير أرضه مجهولة بالنسبة له،وظله يعني به العجز عن التغيير في زمان كبّلت فيه المواهب فكان من حقه أن يشعر بالغربة الفظيعة في بلده التي أمل فيها بالراحة والشبع والأمان لكنه حيل بينه وبين مايشتهي فوجد القسوة والانفلاق عن التنفس والمصلحة كما وجد الصد والإعراض والطرد، ففي قصيدة "مسيرة الخطايا السبع" يقول:

أحلم

كي أرفض أن أولد في محرار

لأني
أعلم أن الليل والنهار
لن يسألا أين أنا
في الثلج
أم في النار(بلند، الأعمال الكاملة، 1946/ 1993)

هنا يفصح عن الحال الحقيقي وهو البحث عن الذات المتشظية الذائبة في المجهول، ثم يذكر المكان المفتوح البحر الذي يدل على التيه وعدم الثبات،وتعقد النفسية وعدم التحكم فيها، وعمق الجرح وتعدد النكبات مع بصيص أمل مفقود.

ساعة أن تغمر صحو حلمنا البحار
ننساب في التيار
أشرعة
تحمل في حنينها اللؤلؤ والمرجان والمحار.
أو منية لصبية صغار
تمرح في شواطئ عذراء ما مرّ بها إعصار(بلند، الأعمال الكاملة، 1973/ 1993)

"والأمكنة ليست رقعا جغرافية مجردة في حدودها0 ، ولكنها عناوين تختزل مشاهد تاريخ الشاعر المتشكل من الغربة واختزال الهموم في داخله "(العزاوي، 1989)

يقول في قصيدته"إلى بيروت الحجر الناتئ":

أيتها الحبيبة التي تجيء كآخر الليل
مثقلة
بهموم العشاق المنبوذين إلاّ...
من حلم آت قبل الصبح
أيتها الحبيبة المستيقظة في الألم كالجرح
أيتها الرغبة القديمة

يا أرض الملح
ها أنا أسقط عند أسوارك
أتعلق بنواتئ أحجارك
أسقط
وأقوم
أسقط
وأقوم
ويظل الليل وراء الأسوار طويلا
مثل حكايات عجائزنا
مثل مغازلهن وهنّ يكررن أغاني
سوداء
عن امرأة تحبل في الحي ولا تلد
تكبر في الوهم ولا تعد
ها أنا
أسقط
أسقط
وأقوم
ويظل الليل طويلا
يتخثر في الحجر الناتئ جرحا
يتخثر في الجرح دما
يا ليل ...إن صرت فما

خبرها عن هذا المرمى وراء الأسوار
خبرها أن دمي ما زال على الأسوار(بلند، الأعمال الكاملة، 1973/ 1993)

والشاعر المبدع في تحديث تجربته من خلال إظهار براعته في تجسيد المكان حسب رؤيته الشعرية مكونا بذلك مشهدا حيّا مليئا بالحركة يترجم موضوعيته و واقعيته ومتخيله، فإحساس الحيدري بالمكان جعله يحس بالزمان الذي اعتقلت فيه الكلمة، وطغى فيه القهر والأسر للطبقة المثقفة خاصة من الشباب الذين رأوا في التغيير ضرورة، وأرادوا حياة تليق بهم وبمكانهم وزمانهم حين رفضوا واقعهم وثاروا عليه من كل الجوانب، إمّا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مثبتين حقهم في ذلك ووجودهم على الساحة الأدبية والسياسية والاجتماعية لكن سرعان ما اضمحلت أحلامهم وتكسرت رغباتهم وآمالهم أمام جدار القهر والتسلط الحكومي ، الذي ألجأهم إلى الخروج من أوطانهم باحثين عن بلدان أخرى تجمعهم، وتلئم جرحهم يستطيعون فيها أن يعلنوا ميلاد كلمتهم التي سلبت منهم، وأبعدوا من أجلها فعبروا عن آلامهم وحسرتهم بعيدا عن وطنهم، فالحيدري يرى في نفسه وطن يسكنه ووطن منفي فيه كلاهما يعيش في الآخر يقولفي قصيدة: "من يدري يا بغداد": (بلند، الأعمال الكاملة، 1946/ 1993)

قد يغترب الواحد منا في الثاني
قد نشعر أننا منبوذان
في أكثر من زمان ومكان
في غير سؤال..في غير عتاب..في غير دم قان
يتسلل من بين شقوق دروب جفت

فتحولت غربته إلى محنة تؤرقه كل لحظة يحس بالضياع فقد بسببه القدرة على الاستمرارية في الحياة، فلم يتحمل الآلام واتخذ من بغداد مركزا لبث تلك الهموم التي نخرت ضلوعه فهجرها، تاركا همومه على أعتابها ليقضي باقي العمر مغتربا ليس له حق في وطنه الأم، فزاد عمق الإحساس بالوحدة وتحرك في روحه الشعور بالانتماء، فهو غريب هوية وذاتا، يقولفي قصيدة" الهويات العشر" (بلند، الأعمال الكاملة، 1973/ 1993)

وخرجت الليلة

كانت في جيبي عشر هويات تسمح لي
أن أخرج هذي الليلة
اسمي..بلند بن أكرم
وأنا من عائلة معروفة
وأنا ...أقسم لم أقتل أحدا
لم أسرق أحدا
وبجيبي عشر هويات تشهد لي
فلماذا لا أخرج هذي الليلة؟
كان البحر بلا شطآن
والظلمة كانت أكبر من عيني إنسان
أعمق من عيني إنسان
ورصيف الشارع كان ...
خلوا إلاّ من صوت حذائي
طق...
طق...
طق...
أجمع ظلي في مصباح حينا ..وأوزعه حينا

والمتأمل في الألفاظ التي يوظفها الحيدري (الغصة،مصلوب،الخانع، الذل، الوجع،مأسور، ثكلى، بور، الخيبة، العار، نندب..) يراها تبعث على العزلة النفسية والقلق وتتعدى ذلك لتصف مشاعره الداخلية المنكسرة والمتحطمة.

فمما سبق يتضح لنا امتزاج المكان بالشاعر ذاتيا وموضوعيا كما امتزج الداخلي بالخارجي بشكل وواضح وملموس في صور شعرية مفعمة بالحيوية والحركية.

–الخاتمة:

إن الأبعاد الجمالية للمكان تولد من عبقرية الشاعر وحسن إبداعه وبراعة توظيفه، مما تقتضيه القرابة بين المسافة الشعورية للمؤلف ورمزيته التي يهندس لها عبر مواقفه وتجربته الشعرية،فالحيز الذي اتخذه بلند الحيدري كملاذ له في أعماله إنما يمتزج فيه الواقع بالخيال المرتقب، فتتراءى أماله وآلامه ومكبوتاته وفق الطاقة الإبداعية له، وقد غلّب كما رأينا – الحيدري– الحس الارتيابي الشديد من مدينته "بغداد"في أغلب دواوينه وسرعان ما تتزن رؤيته الصماء بالتطلع إلى مستقبل بغداد المغاير، رغم بعده عنها متيقنا أنها الأمّ الموجودة في داخله ولا فرصة له في التخلي عنها أو نسيانها، رغم كل انفعالاته الحادة تجاه حضارتها الجافة والمعقدة ولكن هذا التأثر له نصيب كبير من الشعر الغربي ومحاكاة مضامينه،وهو إذ يتذكر بغداد ويسائلها بعمق إنما يجسد موقفه الرافض لحالها الذي يشفق عليه أيّما إشفاق، فأثمر ذلك التساؤل ثورته وتصعلكه وتمرده، على واقع لايرضاه لبلده بل على من نصّب نفسه مسؤولا عنه، فنتج التقهقر والتخلف والاستبداد وخُنقت الحريات.

1. قائمة المصادر والمراجع

1. ابن منظور. (2003). *لسان العرب*. بيروت لبنان: دار الكتب العلمية ط1.

2. حميد الحمداني. *بنية النص السردي* . المغرب : المركز الثقافي العربي .

3. حميد الحميداني. (2000). *بنية النص من منظور النقد العربي*. الدار البيضاء المغرب: المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

4. سعيد يقطان. (ص240). *قال الروي(البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)*. بيروت: المركز الثقافي العربي.

5. عبد المالك مرتاض. (1998). *في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد*. الكويت : عالم المعرفة وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

6. عبد المالك مرتاض. (1998). *في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد*. الكويت: عالم المعرفة وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

7. فيصل غازي النعيمي. (2001). *العلامة والرواية دراسة سيميائية ثلاثيةأرض السوادلعبد الرحمان منيف*. عمان، الأردن: دار مجد لاوي .

8. قرآن. (16). *سورة مريم*.

9. نجيب محفوظ. (1999). *تحليل الخطاب السردي*. مصر: مركب زقاق المدق.